مجلة العلوم الانسانية الدولية، ١٤٢٩/٢٠٠٨ هـ.ق، العدد ١٥ (٤) ٧٧-٩٤

Downloaded from aijh.modares.ac.ir at 10:37 IRDT on Monday August 31st 2020

مقارنة بين حسّان بن ثابت الأنصاري و الخاقاني الشرواني في المدائح النّبوية

تورج زيني‌وند[1]

تاريخ الوصول: ١٤٢٨/٨/١١ تاريخ القبول: ١٤٢٨/١٢/٤

حينما جاء فجرالإسلام و شرع النّاس يدخلون في دين الله أفواجاً، ضَعُف الشّعر العربيّ شيئاً فشيئاً، بسبب انشغال النّاس بالمفاهيم القرآنية. ثمّ تطوّرت الأحداث في ذاك الزّمن و أخذ بعض الشعراء المشركين يوجّهون سهام أشعارهم إلى النّبي (ص) و أصحابه، و سرعان ما قام شعراء آخرون من المسلمين، أمام تلك الأفواه المنحرفة و نظموا كثيراً من الأشعار في هجو هؤلاء و في الدّفاع عن النّبيّ (ص) و الدّين الجديد .

و لما استأثر الله – سبحانه و تعالى – نبيه المكرّم إلى جوار رحمته، لم تخمد أضواء هذا الشعر، بل جرى على لسان الشعراء الملتزمين بحيث صار غرضاً يزدهر مع الأيام حتّى سمّي بالمدائح النّبوية.

أمّا هذه الدراسة فقد ارتكزت على المضامين و الأساليب الشعرية في المدائح النّبوية لدى شاعرين كبيرين، في الأدبين العربي و الفارسي، هما: حسّان بن ثابت الأنصاريّ (شاعر الرّسول) و الخاقاني الشرواني (حسّان العجم) .

الكلمات الرئيسية: المدائح النّبوية، حسّان بن ثابت الأنصاري، الخاقاني الشرواني

١. الاستاذ المساعد في فرع اللغة العربية و آدابها بجامعة كرمانشاه

Downloaded from aijh.modares.ac.ir at 10:37 IRDT on Monday August 31st 2020

١- مقدمة

المدح لغة هو حسن الثّناء (ابن منظور، ١٩٩٨ م، مادّة «مدح »). و فـــي اصطلاح أهل الأدب هو فنّ من فنون الأدب لاسيّما فـــي الشّعر، و قد راج فـــي كثير من العصورالقديمة و بخاصّة قبل أن يهتدي الشاعرأو الكاتب إلى فهم حقيقة رسالته فـــي المجتمع، فكان يبذل ماء وجهه على أبواب المتنفّذين فـــي سبيل التّكسّب (أنظر: عبدالنور، ١٩٧٩م :٢٤٥، وأيضاً: ابن رشيق القيروانـــــي، ١٩٩٨، ٢: ٢٧٦). أمّا المديح النّبويّ، الذي يعدّ نوعاً قيماً من أنواع المدح، فهو لون من التّعبير عن العواطف الدّينيّة و باب من الأدب الرفـــيع، لأنّه لايصدر إلاّ عن قلوب مفعمة بالإيمان، مليئة بالإعجاب بشخصية الرّسول الكريم(ص) (أنظر: الرّبداوى، ١٤٠٢ ه - ١٩٨٢ م: ١٠٧).

و لقد عُرف هذا الفنّ منذ بُعث الرّسول لأمّة العرب هادياً ونذيراً و عرفه الشّعراء فـــي صدر الإسلام و فـــي العصورالّتي تلته، حتّى برز شيئاً فشيئاً فنّ من فنون الشّعرالذي نما على يد المتصوّفـــين من الشّعراء خاصّة (أنظر: پاشا ،١٩٩٩م: ٦٤٦).

إنّ أوّل قصيدة كانت ذات تأثير كبير علي الشّعراء فـــي العصور التالية، هـــى بردة « كعب بن زهير» (؟- ٦٢٢م). ومطلعها ؛

بَانَتْ سُعَادُ فَقَلْـــبـــي الْيَوْمَ مَتْبُولُ

مُتَيَّمٌ إثـــــــــــرْهَا لَمْ يُفْدَ مَكْبُولُ

(التبريزى، ١٩٧١ م: ١١)

و هكذا توالى الشعراء ينظمون المدائح النّبويّة الّـــتـــي بدأها أمثال كعب بن زهير و عبدالله بن رواحة و حسّان بن ثابت الأنصاري (؟-٦٧٤م/ ٥٤ ه) ثمّ أكملها «شرف الدّين البوصيري» (١٢١٢-١٢٩٦م/٦٠٨-٦٩٦ه)، و أحمد شوقـــى (١٨٦٨-١٩٣٢م/١٢٥٨-١٣٥١ه) و الآخرون.

وسنبحث فـــي هذه المقالة- الّتـــي تعدّ فـــي حقل الأدب المقارن- المدائح النبوّية عند حسّان بن ثابت الأنصاري شاعر الرّسول (ص)، والخاقانـــي الشروانـــي (٥٢٠-٥٩٥ هـــ .ق) الّذي سمّـــى فـــي الشّعرالفارســـىّ بـــ «حسّان العجم» بسبب مدائحه النّبويّة القيّمة، متأمّـــلين فـــي المضامين و الأساليب الشعرية لديهما، متبيّنين مكانتهما في هذا الشّعر الملتزم.

٢- المدائح النّبويّة فـــي شعر حسّان بن ثابت الأنصاري و الخاقانـــي الشروانـــي:

٢-١- المدائح النّبويّة فـــي شعر حسّان بن ثابت الأنصاري:

منذ انبثاق الرّسالة المحمّديّة و بزوغ فجر الإسلام، لعب الشعر والأدب دوراً حيويّاً فـــي استنهاض الأمة وكان الشاعر آنذاك بمثابة الإذاعة أو الصّحيفة. و من أشهرهؤلاء الشّعراء حسّان بن ثابت الأنصاري الّذي يكنـــى «أباالحسام» لمناضلته عن الرّسول(ص)، و كان أبوه «ثابت بن المنذر حرام» من سادة قومه و أشرافهم. أقبل حسّان على الرّسول و أسلم مع سائر النّاس الّذين تهافتوا عليه مبايعين و مؤمنين بالدّين الجديد و قام بين يدى الرّسول معلناً ايمانه بالله و رسوله، حيث قال:

شَهِدْتُ بإذْنِ اللهِ أنَّ مُحَمّداً

رَسُولُ الّذى فَوْقَ السَّمواتِ مِنْ عَلُ

(حسّان بن ثابت الأنصاري، ١٩٩٠ م: ٣٧٢)

فقال الرّسول (ص): «أنَا أَشْهَدُ مَعَكَ» (أنظر: الأصفهانـــى، ٢٠٠٠م، ٤: ١٣٣ -١٧٠ و أيضاً: الجمحـــي، بدون تاريخ، ١: ٢١٧). ثمّ دافع حسّان عن

Downloaded from aijh.modares.ac.ir at 10:37 IRDT on Monday August 31st 2020

الإسلام بكلّ ما أوتـــــى من شاعرية و لسان وظّفه فـــي خدمة الرّسول حتّى صار من المقرّبين لدى الرّسول، فأقامه وزير دعايته و محامـــي دعوته و شاعر رسالته ينافح عنه و عن الإسلام و المسلمين بشعر كان له وقع السهام و نفح النّبال. والحقّ أنّ حسّان كان آية من الآيات الّتـــــى أيّدالله بها رسوله(ص) (أنظر: عيسى، ١٩٩٠: ٣٥٠) .

وقد كان المشركون أهل لسن و فخروهجاء و قد حاربوا الرّسول بهذا السّلاح، فكان لابدّ له أن يعدّ لهم شاعراً سليط اللّسان قويّ البيان، والأنصارقد نصروا رسولالله بسيوفهم، فهم أجدر أن ينصروه بألسنتهم. و يبدو أنّ حسّان بن ثابت ،كان اوّل شاعر أجاب هذه الدعوة عندما خاطبهم النّبـــــي (ص): «ما منع القوم الّذين نصروا رسول الله بسلاحهم أن ينصروه بألـــسنتهم ؟». فقال حسّان: «أنا لها» و أخذ بطرف لسانه و قال: «الله ما يسرّني به مقول بين بصرى و صنعاء». فقال: «كيف تهجوهم و أنا منهم؟»،فقال «إني أسُلّك منهم كما تُسلُّ الشَّعرة من العجين» (الأصفهانـــى، ٢٠٠٠م، ٤: ١٣٧– ١٣٨) .

فقدّمه الرّسول (ص) على غيره من الشّعراء و انتدبه لهجاء المشركين و الذّود عن أعراض المسلمين و أقام له منبراً فـــي مسجده ينشد عليه الشعر. فقد دعا الرّسول مراراً له أن يؤيّده الله بروح القدس و حسّان قائلاً؛ «فداك حسّان و شعره يا رسول الله» (المصدر السابق، ٤: ١٤٣)، ثمّ ينطلق منافحاً عن الإسلام بقلب ملـــيء بالإيمان، و لسان لو وضعه على حجر، لفلقه أو على شَعر، لحلقه. يتابع الرّسول شعر حسّان و يتأمّله فـــيسرّ به و يحثّ على قول مثل هذا الشّعر الّذي يعزّز الدّين و الأخلاق و يقف فـــي وجه الوثنيّة و القبليّة و العبوديّة و الطبقيّة (نور الدّين، ٢٠٠٠م: ١٨٧). و لأجل هذا جرّد شاعرنا سيف شعره وكان بالمرصاد لتلك الأفواه المنحرفة كـــ «عبد الله بن الزبعرى» و «أبي سفـــيان بن الحارث» و «عمرو بن العاص» و «ضرار بن الخطاب الفهري» و «أبـــــى عزَّة الجمحـــي» و «هبيرة بن أبـــى وهب المخزومـــي». فانتصر شعره فـــي ميدان القتال وكافح جنباً إلى جنب مع السّيف و الدّرع، رغم أنّه كان يعدّ شاعراً خمرّياً و قبليّاً قبل دخوله الإسلام يمدح الغساسنة و المناذرة (المصدر السابق، ١٨٣) .

أمّا القصائد الّتـــي خصّها بمدح النّبـــى (ص) فهـــي:

القصيدة الأولى؛ قالها فـــي مدح المصطفى (ص) و ذلك قبل فتح مكة، هاجياً فيها أباسفـــيان بن الحارث و يصل عدد أبياتها إلى اثنين و ثلاثين بيتاً من البحرالوافر بهذا المطلع:

عَفَتْ ذاتُ الأَصَابِعِ فَالجِوَاءُ

إلى عَذرَاءَ مَنْزِلُها خَلاءُ

(حسّان ثابت الأنصاري، ١٩٩٠ م: ٥٤)

القصيدة الثانية؛ أنشدها فـــي مدح النّبـــي(ص) و يصل عدد أبياتها إلى أربعة عشر بيتاً من البحرالكامل. مطلعها هكذا:

هَلْ رَسْمُ دَارِسَةِ الْمُقَام، يَبَابِ

مُتَكَلِّمٌ لِمُحَاوِرٍ بِجَوَابِ

(المصدر السابق، ٦٤)

القصيدة الثالثة؛ قالها فـــي مدح النَّبي (ص) ويبلغ عدد أبياتها ستة عشر بيتاً من البحرالوافر:

عَرَفْتَ دِيَارَ زَيْنبَ بِالْكَثِيْبِ

كَخَطِّ الْوَحْـــي فـــي الرَّقِ القَشيبِ

(المصدر السابق، ٦٧)

القصيدة الرابعة؛ فـــي تسعة أبيات من البحر الطويل:

أغَرُّ، عَلَيهِ للنبوّه خـــــــاتَمٌ

مِنَ اللهِ مَشْهُودٌ يَلُوحُ وَ يُشْهَدُ

(المصدر السابق، ١٣١)

Downloaded from aijh.modares.ac.ir at 10:37 IRDT on Monday August 31st 2020

القصيدة الخامسة؛ قالها في مدح النّبـــي(ص) و أصحابه يوم بدر فـــي تسعة أبيات من البحر البسيط:

مُسْتَشعِرِي حَلَقَ الْمَاذِيِّ يَقْدُمُهُمْ

جَلْدُ النَّحيزَةِ مَاضٍ غَيْرُ رِعْدِيد

(المصدر السابق ،١٣٣)

القصيدة السادسة؛ يمدح فيها النّبـــي(ص) في ستة أبيات من البحر الكامل:

وَ اللهِ رَبّي لا نُفَارِقُ مَاجِداً

عَفَّ الْخَلِيقَةِ، مَاجِدَ الْأجدادِ

(المصدر السّابق، ١٣٤)

القصيدة السّابعة؛ فـــي رثاء النّبـــيّ(ص) و مدحه فـــي خمسة و أربعين بيتاً من البحر الطّويل :

بِطَيْبَةَ رَسْمٌ لِلرَّسُولِ وَمَعْهَدُ

مُنيرٌ، وَقَدْ تَعْفُو الرُّسُومُ وَتَهْمَدُ

(المصدر السّابق، ١٤٢)

القصيدة الثامنة؛ أيضاً في رثاء النّبيّ (ص) و مدحه فـــي ثمانية عشرة بيتاً من البحر الكامل:

مابَالُ عَيْنَيْكَ لاَ تَنَامُ كأنَّما

كُحِلَتْ مَآقِيهَا بِكُحْلِ الأرْمَدِ

(المصدر السّابق، ١٥٠)

القصيدة التاسعة؛ أنشدها فـــي مدح الرّسول(ص) و أصحابه فـــي ثلاثة و عشرين بيتاً من البحرالبسيط:

إنَّ الذَّوائبَ مِنْ فِهْرٍ و إخْوَتِهِمْ

قَدْ بَيَّنُوا سُنَّةً لِلنّاس تُتَّبَعُ

(المصدر السّابق ،٣٠١)

و يبدو أنّ أكثر ظاهرة فـــي هذه القصائد هـــي دعوته إلى التّوحيد أوالتّعمّق فـــي الحياة و الكون أوشعائر الإسلام و مدح الرّسول وأصحابه. إنّ شاعرنا فـــي هذه القصائد لايلتزم مذاهب و اتجاهات غيره من الشّعراء كالنّابغة الذبيانـــي (؟ - ٦٠٤ م) و الحطيئة (؟ - ٦٧٩م/٥٩ هـــ) و لم يعمد إلى التّكلّف فـــي شعره بل يـــــرسله كما أوحت به القريحة، ولكن كثيراً ما إضطرته المواقف الإسلاميّة إلى الإرتجال. فلهذا يرى بعض النقاد أنّ شعره فـــي الإسلام لايصل إلى مقام شعره فـــي الجاهليّة. يـــقول صاحب طبقات فحول الشّعراء فـــي ردّ هذا الرأى :«قد حُمل عليه مالم يُحمل على أحد» (الجمحي، بدون تاريخ، ١: ١٧٩)، كما يشير إلى هذا الأمر، عبدالملك بن قريب الأصمعي حيث يقول: « تُنسب إليه أشياءلا تصحّ عنه». (ضيف، ١٩٦٣ م: ٧٩ ،نقله عن الإستيعاب :١٣٠) .

مهما يكن من الأمر، فصحيح أنّ الشّعراء الّذين نبتوا فـــي الجاهليّة وعاشوا فـــي صدر الإسلام لا يصل شعرهم إلى ذروة ما أنشدوا فـــي الجاهليّة، أمّا إذا تأمّلنا فـــي بواعث هذا الأمر فنلاحظ أنّهم تأثّروا تأثّراً جليّاً بالمعارف الإسلاميّة و القرآنية، بحيث يمكن لنا أن نلمس فـــي شعرهم روحاً جديدة و سمة من الإيمان العميق، متخلّفـــين بذلك عن الأسلوب الّذي تعوّدوا أن يلتزموه فـــي الجاهليّة، و من هنا جاء شعرهم أغزرمعنىً، لكنّه أقلّ أسلوبـــاً (ضيف، بدون تاريخ :٣٠). إضافة إلى ذلك ،لو أنّ شعر حسان كان ضعيفاً أو غثاً بارداً، فلماذا يتأمّل الرّسول فـــي شعره و يحثّه على الشّعر و يسأل الله مراراً أن يويّده بروح القدس و يرى تأثير شعره على المشركين كوقع السّهام عليهم؟!.

بعد هذا، أورد بعض النّقاد على حسّان بأنّه ظلّ مع رفاقه من شعراء النّـــبـــي(ص)، جاهلـــيّ الصّور و الصّياغة و قلّما استمدّوا من شخصيّة النّـــبـــي معان جديدة؛ كالإنسانيّة و الأبوّة والرّحمة و العفو و السّماحة و سموّالفكر والتّجرد و الإنقاذ و الدّعوة إلى السِّلم والمساواة

Downloaded from aijh.modares.ac.ir at 10:37 IRDT on Monday August 31st 2020

بين البشر و....، بل ظلّوا يصفون شخصيّة النّبـــي (ص) كزعيم أو سيّد قبلـــي فهو؛ بطل، كريم، مشرق الوجه، وضاح الحسن، رفـــيع العماد، طويل النّجاد، كثير الرّماد، إذا ما شتا تماماً كصخرالخنساء أو من شابه صخراً فـــي نخوته و كرمه و بطولته و مثالها من الصّفات المعروفة الّتـــي لم تكن شيئاً مذكوراً أمام صفات النّبـــي(ص) و شمائله الربانيّة و خلقه العظيم وشيمته الإنسانيّةالفذّة (شرف الدين، ١٩٩٧ م: ٧١). و يكمل مؤلّف« المدائح النبويّة» هذا الكلام حيث يقول: «لايمكن، أن نعتبر أشعارحسّان فـــي مدح النّبي (ص) كقسم من المدائح النّبويّة لأنّه مدح النّبي بالمضامين و الأساليب الجاهليّة» (مبارك، ١٩٧٦ م: ٦٩) .

هذا النقد، صحيح على شعرحسّان؛ ألست تراه وهو يقول فـــي مدح النّبـــــي(ص) كما قالت الخنساء فـــي رثاء صخر:

طَويلُ النِّجَادِ رَفـــيعُ العَمادِ

مُصُاصُ النِّجارِ مِنَ الْخَزْرَجِ

(حسّان بن ثابت الأنصاري، ١٩٩٠ م: ١٢٤)

و الأمثلة كثيرة فـــي هذا الباب، و لكن هذا لايعنـــى أن أسلوبه يتخلّى تماماً عن الرّوح الإسلامية كما صرّح به هؤلاء، بل هذا مؤلّف «أدباء العرب» يردّ على هذا الرأي ردّاً صارماً و يعتقد بأنّ أسلوب شاعرنا، هو غير الأسلوب الّذي عهدناه في الجاهليّة، فهو لايشبّه محمّداً بالأسد كما فعل كعب بن زهير، و لايمعن فـــي وصف جوده و سخائه كما يريد الإستجداء و التّكسّب من ممدوحه، بل يعنى بوصف شمائله الغّر ويبيح في ذكر الرّسالة و التّصديق بها ويذكر ماحمل الإسلام للعرب من نور و هداية و أمل بعد يأس، و يعرّض أحياناً بمن أنكر النّبوّة و كذّب بها. فهو مدح جديد في نوعه و طريقته، جديد فـــي تعابيره و الفاظه، جديد فـــي نفحته الدينيّة، بيد أنّه لا تعدو الفطرة الجاهليّة و لكنّها فطرة جلاها الدّين وصقّلها الايمان (أنظر: البستاني، ١٩٨٩ م ١: ٢٧٨). ودواليته المشهورة هـــــى شعر محكم يؤيد هذا الرأى حيث يقول :

أغَرُّ عَلَيهِ للنُّبوَّة خَاتَمٌ

مِنَ اللهِ مَشْهُوْدٌ يَلُوْحُ وَ يُشْهَدُ

(حسّان بن ثابت الأنصاري، ١٩٩٠ م: ١٣١)

فنجد هذه القصيدة، غنّية بالتّعاليم والقيم الإسلاميّة، و فـــيها تأثّر شديد بالقرآن الكريم و إشادة بالنّبي (ص) و بدوره و جهاده، و إقرار مطلق بنبوّته و بالخالق الواحد، كماهي ردّ قاطع على أولئك الّذين يدّعون خلوّ شعر حسّان الإسلامـــيّ من التّعاليم الإسلاميّة. فهذه القصيدة تشتمل على النّظام العقيدي الإسلامـــي و على بعض جوانب النّظام التّشريعـــي. وكذلـــك صرّح بهذه المسألة صاحب «موسوعة أمراء الشّعر العربـــي من الجاهليّة إلى العصر العباســـي» (نور الدين، ٢٠٠٠م: ١٩٨). و من هذا المُنطَلق، نتأمّل فـــي ديوانه الّذي يكون أحسن مصدر لتعريف شعره، و هو ملـــيءٌ بهذه النّماذج. فمنها هذه الأبيات الّتـــى يتحدّث فـــيها عن اتّصاف النّبـــي(ص) بصفات، كالتّقـــي و قول الحق و البشير و النذير و الداعي إلى الله؛

أَعْنِـــــــي الرّسُولَ فإنّ اللهَ فَضَّلَهُ

عَلَى البَرِيّةِ بالتّقوَى وَ بِالْجُودِ

(حسّان بن ثابت الأنصاري، ١٩٩٠ م: ١٣٣)

وَ قَالَ اللهُ قَدْ أَرسَلْـــتُ عـــَبْداً

يَقُوْلُ الحـــــــقَّ إنْ نَفَعَ الْبلاءُ

(المصدر السّابق ،٥٩)

مُتَكرِّمـــــاً يَدْعُوْ إلى ربِّ الْعُلي

بَذْلَ النَّصِيْـــــحَةِ رافِعَ الأَعْمَادِ

(المصدر السابق ،١٣٤)

Downloaded from aijh.modares.ac.ir at 10:37 IRDT on Monday August 31st 2020

و إن قلنا بأنّ الشعراء فـــي صدرالإسلام قد توجّهوا إلى مديح الاسلام المتّمل في شخص الرّسول(ص) و فـــي أصحابه المخلصين الكرام، فلماذا يخلو شعرحسّان من مدح على (ع) و هو سيف الله و رسوله؟! و حتّى حين قتل عثمان، يشير إلى بنـــي هاشم و الإمام علـــى (ع) خاصّة، هكذا؛

يَالَيْتَ شِعْري، وَلَيْتَ الطَّيْرَ تُخْبِرُنـــي

مَاكانَ شَأنُ عَلـــي وَ ابنِ عَفانَا

(المصدر السابق، ٤٦٣)

فنجده هنا يعارض أميرالمومنين (ع) بعداوته و يرميه بمعاريض القول فـــي أشعاره و لذا يبدو أنّه خاصّة فـــي أواخر حياته، يقدّم رِجلاً فـــي الإيمان و يؤخّر أخري فـــي الضّلال و النّفاق. أليس هذا حسّان ينشد قصيدته في قضية «غديرخم »، بالمطلع التّالي؛

يُناديهِمُ يومَ الغديرِ نَبِيُّهمُ

بُخمٍّ وَ أسْمِعْ بالرّسُولِ مُنادياً

(المفيد، بدون تاريخ: ١٥٨)

أهو كان انتهازياً أم لا ؟! و لو كان هكذا، فما أدقّ قول النّبـــي(ص) المقيد بـ «ما» المصدرية الظّرفية، فيه؛ «مازلت فينا». ولعلّ هذه المسألة ممّا قد وُضِعت عليه (أنظر: ضيف، ١٩٦٣ م :٨٠) .

٢-٢- المدائح النبويّة فـــي شعر الخاقانـــي الشروانـــي

ليست المدائح النّبوّية مقصورة على العرب و الشعراء العرب، بل هناك آخرون من أبناء الفرس أحسّوا بأهميّة هذا الفنّ، فسخّروا قلمهم و لسانهم فـــي سبيل الذّود و الدفاع عن الرّسول(ص) و مدحه. ومن جملة هؤلاء الّذين عرفوا بمدح النّبيّ (ص) فـــي الشّعر الفارسيّ «حسّان العجم» أفضل الدّين بديل بن على نجّار الخاقانيّ الشروانـــي (٥٢٠-٥٩٥ هـــ .ق). ولد «أفضل الدّين» هذا، فـــي بيت فقير، كان ابوه نجّاراً حاذقاً وأمّه كانت على دين المسيح (ع) قبل أن تؤمن بالإسلام، فترعرع في مدرسة عمّه،«كافـــى الدّين عمربن عثمان» الذّي كان طبيباً حاذقاً و فـــيلسوفاً شهيراً. فتبوّأ عنده منـــزلة رفـــيعة في الشّعروالنّثر. و قدكان إلى جانب ذلك صاحب عزّة رفـــيعة و مزايا إنسانيّة رائعة و إن كان قد خضع للحكام فترة من عمره لمعاناته البؤس والحرمان، طالباً النّعمة و الرّخاء.

اقتحم شعره أرجاء الممالك الإسلامية فأقبل على الملوك و الأمراء من «السّلاجقة» و «الخوارزميين» والحكام الآخرين، طالباً حياة مترفة، و لكن من خلال السّنوات الّتـــي حجّ فيها بيت الله الحرام و زار المدينة المنوّرة، أخذ يكتسب المعرفةالقلبيّة كما اكتسب شعره الرّقة التعبيريّة. فبدأ شاعرنا يترك القصور و ينصب نفسه لمدح النّبـــي(ص) و ما إلى ذلك ممايبثق عن العاطفة الصادقة و العقيدة الصافـــية. و لقد حقّ بعد ذلك أن يقال أنّه هو« حسّان العجم »، (أنظر: صفا، ١٣٧٣ هـ .ش، ٢: ٧٧٦ وأيضاً: فروزانفر، ١٣٦٩ هـ .ش: ٦١٢). و سمّاه، عمّه بهذا اللّقب من قبل، حيث يقول :

چون ديد كه در سخن تمامم

حسّان عجم نهاد نامم

(خاقانـــي شرواني، ١٣٣٣ هـ .ش: ٢٢١)

وحتّي يدّعـــى – مثل البوصيرى - بأنّ بعض الصّديقين رأوا النّبي (ص) فـــي المنام محتفياً بالخاقاني و معاتباً حسّاده:

اندرين هفته، هشت، نه صديـــق

مصطفى را به خواب ديدستند

كآمد و التفات كـــرد به مـــن

زآن، مرا چاه و آب ديدستند

Downloaded from aijh.modares.ac.ir at 10:37 IRDT on Monday August 31st 2020

زده در پیـــــش مصطفـــی خـــیـــمه؛
دست من در طناب دیدســـتند
مصطفی را، زرنج خاطـــــــــــر من
بابـــدان در عتاب دیدســـــــــتند
(خاقاني شروانـــــي، ۱۳۷۵ هـ .ش، ۲: ۱۱۶۵)

و ممالاريب فـــيه أنّ الخاقانـــي الشروانـــي يعدّ شاعراً فحلاً، فـــي القصيدة الفارسية، فهو يملك عنان الكلمات و العبارات، تميل معه حيث مال، ويطيعه الكلام إذا قال، بحيث تأثّر به كثير من الشعراء و اتّبعوا منهجه كما أنّه تأثر بأشعار حسّان، شاعرالرسول (ص)، وسلك مسلكه، فـــي هذا الباب؛

چون ز راه مكّه خاقاني به يثرب داد روی
پيش صدر مصطفـــی، ثانـــیِ حسّان ديده اند
(المصدر السابق، ۱: ۱۷۵)

***

مصطفی حاضر و حسّان عجم مدحسرای
پيش سيمرغ خمش، طوطي گويا بينند
(المصدر السابق، ۱: ۲۰۷)

***

چون به در مصطفی نايب حسّان تويی
فرض بود نعت او حرز أمم ساختن
(المصدر السابق، ۱: ٤٧١)

لكنّه كان يجد نفسه أعلى من حسّان شأناً فـــي مقام الفخر:

رشك نظم من خورد حسّان ثابت را جگر
دست نثر من زند سبحان وايل را قَفَا
(المصدر السابق، ۱: ۳۲)

***

گـــر زين سخنان سحر كردار
حسّان عرب شدی خبردار
بانگش زندی ز عـــــــالم پاك
يا حسّـــان العـــجم فَدَيْنَـــاك
(خاقاني شرواني، ۱۳۳۳ هـ .ش :۷۷)

أمّا المدائح النّبويّة الّتـــــی نجدها في شعر حسّان العجم فهي مقصورة على النّبيّ (ص) أو مدح كبارالصحابةأوالّذين أبلوا فـــي الدّفاع عن الإسلام بلاءً حسناً، وقليلاً مايمزجها بمدح أهل البيت (ع)، إذ أنّه كان شافعيّاً (أنظر: فروزانفر، ۱۳٦۹ هـ .ش: ٦۲۲).

هذه المدائح تختلف عن المدح التّكسبـــیّ بخروجها عن التّقلّب على معاني العطاء و الجود و الإنطواء على وصف الخصال الحميدة و رسالة نبيّنا (ص) و ما إلى ذلك مما يصدر عن العاطفة الحقّة الصّادقة و لا تخلو على كلّ حال من الشَّغف و الهيجان.

هذه القصائد الّتـــی تدلّ على عواطفه الصّادقة، هـــي قصائد فـــي التّوحيد و الموعظة و مدح النّبـــی(ص) أو تقارير فـــي رحلاته عن الحجّ. إنّه قد أجاد فيها بوصف البادية و حركة القوافل و مناسك الحجّ و الكعبة و عرفات و مني و الروضة النّبويّة المقدّسة، بحيث يذوب القارئ فـــيها ذوباً فكأنّه يحجّ و يزور مع الشاعر.

يعتبر الخاقاني الشّرواني من الشّعراء البارزين فـــي فنّ المدائح النّبويّة و تغلب على جميع أشعاره جزالة اللّفظ و فخامة التّعبير و المعنى و كثرة ما يتصل ببيئته من التّعقيد و التّصوير و قليلاً ما يميل إلى اللّين و عذوبة اللفظ و سهولة الغرض خلافاً لما نراه عند حسّان العرب.

و يبدو أنّ المضامين الّـــتـــي أتى بها شاعرنا و أبدع و ابتكرفيها، تعدّ من أروع ما قيل فـــي الشّعر العربيّ و الفارسيّ؛ لأنّ هذه القصائد ناتجة عن الإعتقاد و الحبّ و قد أحّس فـــيها حسّاً شديد العاطفة. و من الواضح أنّه تمسّك فيها بعدد من المقوّمات الفنيّة. فمنها؛ الإقتباس من

Downloaded from aijh.modares.ac.ir at 10:37 IRDT on Monday August 31st 2020

القرآن الكريم و الأحاديث النّبويّة، و منها استعمال الإصطلاحات العلميّة ثم تمتّعه بالثّقافة المسيحيّة و التّركيّة (أنظر: صفا، ١٣٧٣هـ.ش، ٢:٧٧٦).

و يبدو أنّ شخصيّة الخاقانـــي و مواهبه الشّعريّة تكاد أن تكون منقطعة النّظير فـــي تاريخ الشّعر الفارســيّ، فقد امتلك شخصيّة متشعّبة، اصطبغت بأصول مختلفه تمدة؛ أوّلاً؛ أنّه كان يعيش فـــي مجتمع غلب عليه الأدب العربـــي، ثانياً؛ امتزجت في دمه ثلاثة عناصر هـــي الفارسيّة و التّركيّة و العنصر المسيحـــي.

ثالثاً؛ أنّ أسفاره إلى مكّة و المدينة و العراق كمراكز الدّين و الأدب قد أرشدته إلى الزّهد و التصوّف و فتّحت أمامه عوالم جديدة.

رابعاً؛ موهبته الشّخصيّة الّتي ترعرعت فـــي مدرسة عمّه، كافـــي الدّين عمربن عثمان، ازدهرت و صارت موهبة قوية غنية .

خامساً؛ أنّه تمتّع بأدب غنّـــي خصب مثل الأدب الفارســـى الذي أَثْـــراه شعراء مثل الرّودكـــي، و الفردوســـي و السنائـــي الغزنوي.

سادساً؛ هو يشعر بالعزّة و المنعة و الشّرف التي لا نظيرلها فـــي كلا الأدبين؛ إنّه مثل بقية شعراء القرن السادس؛ يفتخر بنفسه ونراه فـــي هذا المضار يجري على عادة أبـــي الطّيب المتنبّـــي (٣٠٣-٣٥٤ هـ .ق) (فاضلي، ١٣٧٨ هـ .ش، ٤٠٧ وأيضاً: زيني وند، ١٣٨١ هـ .ش). لأنَّ نفسيته القوّية و قدرته على قرض الشّعر و شعوره بالقناعة و العزّة جعلته يميل إلى هذا الغرض. أمّا فـــي القصائد الّتـــي أنشدها فـــي التّوحيد و مدح النّبيّ (ص) - و تكون تلك القصائد أطول مدائحه- فلا يتحدّث فيها عن تلك الشخصيّة المتكبّرة بل يتواضع أمام الدّين كتواضع المريض أمام الطّبيب (أنظر: اردلان جوان، ١٣٦٧ هـ .ش: ٩ وأيضاً؛ كزازي، ١٣٧٢ هـ .ش: ٢٠١).

أمّا القصائد التـــى يختصّها بمدح النّبـــى(ص) فهـــي:

القصيدة الأولى؛ فـــي التّوحيد و الموعظة و مدح خاتم النّبيين (ص) و يصل عدد أبياتها إلى ثلاثة و ثلاثين بيتاً من البحر الرّمل. مطلعها :

جوشن صورت برون كن در صف مردان درآ
دل طلب داركز دارِ مُلْكِ دل، توان شد پادشا
(خاقاني شرواني، ١٣٧٥ هـ .ش، ١: ٨)

القصيدة الثانيّة؛ فـــي الموعظة والحكمة و وصف المعراج و يبلغ عدد أبياتها ستة و ستين بيتاً من البحر المضارع بهذا المطلع ؛

اي پنج نوبه كوفته دردار ملك «لا »
« لا» در چهار بالش وحدت كشد تو را
(المصدر السابق، ١: ١١)

القصيدة الثالثة؛ فـــي نعت النّبي(ص) و الحكمة و الموعظة الّتي يبلغ عدد أبياتها واحداً و تسعين بيتاً من البحر الهزج. مطلعها :

عروس عافـــيت آنگونه قبول كرد مرا
كه عمر بيش بهادادمش به شيربها
(المصدر السابق، ١: ١٦)

القصيدة الرّابعة؛ فـــي مدح خاتم النّبيين و فـــي الحكمة و الموعظة و التّجريد و فـــي ثلاثة و سبعين بيتاً من البحر الهزج أيضا، و مطلعها:

سرير فقر تو را سر كشيد به تاج رضا
تو سر به جيب هوس در كشيده اينت خطا
(المصدر السّابق، ١: ٢٢)

Downloaded from aijh.modares.ac.ir at 10:37 IRDT on Monday August 31st 2020

القصيدة الخامسة؛ فـــي مدح النّبـــى الأكرم و فـــي الحكمة والموعظة، يتراوح عدد أبياتها أربعة وخمسين بيتاً من البحر المضارع. مطلعها :

طفلـــى هنوز، بسته گهواره فنـــا
مرد، آن زمان شوى كه شوى از همه جدا

(المصدر السابق، ١: ٢٨)

القصيدة السّادسة؛ هـــي الّتـــى سمّيت بـــ «حرز الحجاز». أنشأها فـــي الكعبة و أنشدها في الروضة النّبويّة المنوّرة. و يتراوح عدد أبياتها واحداً وتسعين بيتاً من البحر الرّمل. مطلعها:

شبروان چون رخ صبح آيينه سيما بينند
كعبه را چهره در آن آينه پيدا بينند

(المصدر السابق، ١: ٢٠٠)

القصيدة السّابعة؛ هـــى الّتـــى سميّت بـــ « كنز الرّكاز» و شأنها كشأن « حرز الحجاز». يصل عدد أبياتها إلى خمسة و سبعين بيتاً من البحر الرّمل، مطلعها :

مقصد اينجا ست نداي طلب اينجا شنويد
بختيان را ز جرس، صبحدم، آوا شنوند

(المصدر السابق، ١: ٢٠٨)

القصيدة الثّامنة؛ هـــى الّتـــى يبلغ عدد أبياتها مائة وثلاثة أبيات، و سمّيت بـــ « تحفة الحرمين» أو « تفاحة الثّقلين » من بحر الرّمل، مطلعها :

صبحِ خيزان بين به صدر كعبه، مهمان آمده
جان عالم ديده و در عالم جان آمده

(المصدر السابق، ١: ٥٥٧)

القصيدة التاسعة؛ هـــي قصيدة «منطق الطّير» في مطلعين؛ المطلع الأوّل فـــي وصف الصبح و نعت الكعبة، و المطلع الثّانـــى فـــي وصف الرّبيع و نعت النّبـــــي(ص). ويصل عدد أبيـــاتها إلى ستة و ستين بيتاً من البحـــر المنسرح. ومطلعها الثّانـــى:

رخش بِهَرّا بتافت بر سَرِ صِفْرِ آفتاب
رفت به چرب آخورى، گنجِ روان در ركاب

(المصدر السابق، ١: ٦٣٠)

القصيدة العاشرة؛ سمّاها بتحفة العراقين و قالها فـــي خطابه إلى النّـــبـــي(ص) حيث يبلغ عدد أبياتها سبعة و سبعين بيتاً من البحر المضارع قائلاً :

اى قابل وحـــى و قالب حلم
اى عامل عدل و عالم علم

(خاقاني شرواني، ١٣٣٣ هـ .ش: ١٥٣)

٣- مضامين المدائح النّبويّة فـــي شعر حسّان العرب و حسّان العجم:

جاءت مضامين المدائح النّبويّة عندهما متنوّعة؛ فأحياناً يعتمدان على ذكر سيرته وأحياناً يؤكّدان على شرح فضائله و عدّ شمائله و سرد ماكان فـــي رسالته من المحاسن و المكارم. وسأشير إلى بعض هذه المضامين المشتركة أوالمضامين الّتي انفرد بها بعضهما، و جدير بالذكر أنّ المعانـــي التـــي استعملت في مدائحهما، معظمها مستمدّة من القران الكريم و الحديث الشريف و السيرة النّبويّة ؛

٣-١) في التحذيرعن هوي النّفس:

حسّان: وَاللهِ رَبِّي لاَ نُفَارِقُ أمـــْرَهُ
مَاكانَ عَيْشٌ يُرْتَجَي لِمعَادِ

(حسّان بن ثابت الأنصاري، ١٩٩٠ م: ١٥٣)

الخاقانـــــى:

شاخ امل بزن، كه چراغي است زود مير
بيخ هوس بِكَن ،كه درختي است كم بقا

(خاقاني شرواني، ١٣٧٥ هـ .ش، ١: ١٣)

Downloaded from aijh.modares.ac.ir at 10:37 IRDT on Monday August 31st 2020

٣- ٢) فـــي مدح الرّسول (ص) :

حسّان: وَأَحْسَنُ مِنْكَ لَمْ تَرَقَطَّ عيْنـــي
وَ أَجْمَلُ مِنْكَ لَمْ تَلِدِ النِّسَاءُ
خُلِـــــــقْتَ مُبَـــــرَّأً مِنْ كُلِّ عَيْبٍ
كأَنَّكَ قَدْ خُلِقْتَ كما تَشَاءُ
(حسّان بن ثابت الأنصاري، ١٩٩٠ م: ٦٣)

الخاقانـــي :

نطقش معلمی که کند عقل را ادب
خلقش مفرّحی که دهد روح را شفا
(خاقاني شرواني، ١٣٧٥ هـ .ش، ١: ١٤)

٣-٣) فـــي التّحدّث عن سيرته (ص) :

حسّان:

عَطُوفٌ عَلَيهِم ،لا يُثَنّـــي جَنَاحَه
إلى كَنَفٍ يَحنُو عَلَيـــْهِم ويَمْهِدُ
(حسّان بن ثابت الأنصاري، ١٩٩٠ م: ١٢٩)

الخاقانـــي:

احمد مرسل که کرد از تپش و زخم تیغ
تخت سلاطین زگال، گرده شیران کباب
(خاقاني شرواني، ١٣٧٥ هـ .ش، ١: ٦٧)

٣-٤) فـــي توصيف القرآن الكريم:

حسّان:

يَتْلُوْ عَلَيْنَا النُّورَ فـــيها مُحكماً
قِسماً لَعَمْرُك لَيْسَ كالأقْسَامِ
(حسّان بن ثابت الأنصاري، ١٩٩٠م: ٤٤٢)

الخاقانـــي:

در سياهي سنگ كعبه، روشنايي بين چنانك
نورِ معني در سياهي حرف قرآن آمده
(خاقاني شرواني، ١٣٧٥ هـ .ش، ١: ٥٦١)

٣-٥) فـــي التّوسّل و التّشفّع :

حسّان:

مَعَ الْمُصْطَفى أَرْجُوْ بِذاكَ جوارَه
و فِي نَيْلِ ذاكَ الْيَوْمِ أَسْعَى وَ أَجْهَدُ
(حسّان بن ثابت الأنصاري، ١٩٩٠م: ١٥٠)

الخاقانـــي:

اي شفـــيع صد هزار امت چوخاقاني به حشر
بنده مرتد بود، بر دست تو ايمان تازه كرد
(خاقاني شرواني ١٣٧٥ هـ .ش، ٢: ١١٤٨)

٣-٦)فـــي المناجات و التضرع:

حسّان:

يَا رَبِّ فأجْمَعْنَا مَعاً و نَبيَّنَا،
فـــي جَنَّةٍ تَثْنـــي عُيُونَ الحُسَدِ
(حسّان بن ثابت الأنصاري، ١٩٩٠ م: ١٣٤)

الخاقانـــي:

مرا به منزلِ «الاّ الّذينَ» فرود آور
فروگشاي زِمَن طمطُراقِ «الشّعراء»
(خاقاني شرواني، ١٣٧٥ هـ .ش، ١: ٢٩)

٣-٧) فـــي ذكر فضائله بالنسبة إلى الأنبياء الآخرين :

حسان: أغَرُّ عَلَيهِ للنُّبوَّةِ خَاتَمٌ
مِنَ اللهِ مَشْهُودٌ يَلُوْحُ و يُشْهَدُ
(حسّان بن ثابت الأنصاري، ١٩٩٠ م: ٢٣٤)

الخاقانـــي:

جمع رُسُل بردرش مُفلسِ طالبْ زكاة
او شده تاجِ رُسُل؛ تاجرِ صاحبْ نِصاب
(خاقاني شرواني، ١٣٧٥ هـ .ش، ١: ٦٧)

Downloaded from aijh.modares.ac.ir at 10:37 IRDT on Monday August 31st 2020

٣-٨) فـــي التّحدّث عن جهاد رسول الله(ص):

حسّان:

مَاضٍ على الْهَوْلِ رَكَّابٌ لِمَا قَطَعُوا

إذا الْكُـــمَاةُ تَحَامَوْا كالأَقْسَامِ

(حسّان بن ثابت الأنصاري، ١٩٩٠ م: ١٣٤)

الخاقاني :

ديده نه اي روز بدركآن شه دين بدر آور

راند سپه در سپه سوي نشيب و عقاب

(خاقاني شرواني، ١٣٧٥ هـ .ش، ١: ٦٧)

و بعض المضامين الّتـــى إنفرد بها بعضهما :

٣-٩) فـــي التّحدّث عن أهل بيت الرسول(ص):

در عَلَمَشْ ميرِنَحْل نيزه كشيده چو نخل

غرقـــة صد نيزه خون أهل طعان وضراب

(خاقاني شرواني، ١٣٧٥ هـ .ش، ١: ١٣٢)

٣-١٠) فـــي التّحدّث عن حجّ بيت الله الحرام و الروضة النّبويّة المنوّرة :

عرشيان بانگ « ولله على النّاس » زنند

پاسخ از خلق؛« سَمِعْنَا و اَطَعْنَا» شنوند

(المصدر السابق، ١: ٦٦)

به سلام آمدگان حريم مصطفوي

« ادْخُلُوها بِسلام » از حرم آوا شنوند

(المصدر السابق، ١: ٢١٠)

٣-١١) فـــي التّحدّث عن الحقيقة المحمديّة:

برنامده سپيدة صبح ازل هنوز

كاو بر سيه سپيد ازل بوده پيشوا

(المصدر السابق، ١: ٢١٢)

الّذى يشير إلى هذا الحديث؛ «كنت نبيّاً و آدمُ بينَ الماء و الطين» (بحار الأنوار، ج ١٨ / ص ٢٧٨/ س ١٣).

إذاً نستشف من خلال الأبيات أن تأثر الخاقاني بسلفه حسّان بن ثابت، يبدو من باب «التّناص» يعنـــى أنّه رغم ثقافته الواسعة و اطلاعه على شعر حسّان و آداب العرب، لم يقتبس عن حسّان اقتباساً من حيث المضمون و الأسلوب، بل جعله قدوة و دليلاً لشعره الّذي يمتاز بالخلق و الإبداع.

خصائص أسلوبهما:

لقد كان حسّان من المجدّدين في شعره، و قد أتاحت له حياته الطّويلة و معاصرته لعصرين مختلفـــين كلّ الاختلاف، أن يكون مجدّداً في تفكيره و مناهج شعره، لأنّ الإسلام الّذى أدركه حسّان قد أثّر في شعره، و هذا التّأثير و إن لم يكن قويّاً و فاعلاً من فعل رواسب الجاهليّة مثل استهلال بعض مدائحه بالمقدّمة الطّلليّة :

هَلْ رَسْمُ دارِسَةِ المُقَام يَبَابِ

مُتَكلِّمٌ لِمُحاورٍ بجَوابِ

(حسّان بن ثابت الأنصاري، ١٩٩٠م :٦٤)

لكنّه يعدل بعض الأحيان عن هذه المقدّمة في مدح النّبيّ (ص) :

أغَرُّ عَلَيْهِ للنُّبُوَّةِ خَاتَمٌ

مِنَ اللهِ مَشهودٌ يَلُوحُ و يُشْهَدُ

(حسّان بن ثابت الأنصاري، ١٩٩٠م: ٢٣٤)

إنّه يمدح النّبـــــي(ص) بأسلوب يختلف عن الأسلوب الّذى تعوّد عليه في الجاهليّة. على سبيل المثال؛ هو لا يشبّه نبيّنا(ص) بالأسد كما فعل كعب بن زهير و لا يمعن في وصف جوده و سخائه كمن يريد الاستجداء و التّكسّب، بل يعنـــــى بوصف شمائله الغرّ و يبيح في ذكرالرّسالة و

Downloaded from aijh.modares.ac.ir at 10:37 IRDT on Monday August 31st 2020

التّصديق بها، و يذكر ما حمل الإسلام للعرب من نور و هداية و أمل بعد يأس و يعرض أحياناً بمن أنكر النّبوة فـــيستفـــيد من أسلوب التهديد و الوعد فها هو يخاطب أباسفـــيان بن الحارث بن عبدالمطلب هكذا:

فَمَنْ يَهْجُوْ رَسُولَ اللهِ مِنْكُـــــمْ

و يَمْدَحَهُ و يَنْصُرُهُ سِواءُ

(المصدر السابق، ٦١)

فَإنَّ أَبـــي وَ وَالِدَهُ وَعِرْضِـــي

لِعِـــرْضِ مُحَمَّدٍ مِنْكُمْ وِقاءُ

(المصدر السابق، ٦٢)

لولا النَّبـــيُ وَ قَولُ الْحقِّ مَغْضَبَةٌ

لَمَا تَرَكْتُ لَكُمْ أُنْثَى وَلاذَكَراً

(المصدر السابق ٢٧٩)

يأتـــي حسّان في مدح النّـــبـــــيّ (ص) بألفاظ جديدة لم يسبق لها مثيل فـــي قاموس المدح العربـــي. ألفاظ مثل: جبرئيل و رسول الله و روح القدس و أمين الله و أمرالله و التقوى و العبادة و ... ألفاظه دائماً تأتـــــي متآخية مع معانيه و تتلائم مع أفكاره و تدخل القلوب دون أن تكد فكراً أو تثقل على السّمع، وفـــيها أثر من الدين الجديد. فنجد ألفاظه رقيقة، عاذبة، لينة مع السّلاسة و الطّلاوة دون التّكلّف و التّأنق كما نلاحظ فـــيها موسيقى القوّة و الدّعوة ذات جلجلة تتناسب مع جلجلة صدر الإسلام.

فقد غلب على أسلوبه، طابع الارتجال و تخلو قصائده المدحيّة من الوثبات الخياليّة، و الأفكار مثبتة فـــي شـــيء من الوضوح و النّظم كما أنّها حقائق أفرغت فـــي قالب من التّقرير و الخبر، لا أعمال فـــيها لصور الخيال من التشبيهات المركّبة أو الاستعارات التّمثيليّة، مستعملاً أسلوباً إنشائياً أو خبريّاً :

أَلا أَخْبِرْ أباسُفـــيانَ عَنّـــي

فَأنْتَ مُجـــــــــــــوَّفٌ نَخِبٌ هَوَاءُ

(المصدر السابق، ٦٠)

نَبِيٌّ أَتَانَا بَعْدَ يَأْسٍ و فـــتْرَةٍ

مِنَ الرُّسْلِ وَالأَوْثانُ في الأَرْضِ تُعْبَدُ

(المصدر السابق، ١٣١)

و بما أنَّ حسّان كان ابن البيئة الإسلاميّة الجديدة، و يعّد من الشعراء الّذين عاصروا الدّعوة الإسلاميّة، فقد تأثّر في مدائحه تأثّراً كبيراً بالآيات القرآنيّة مقتبساً منها معانـــي جديدة؛

فَاذْهَبْ خُبَيْبُ جَزَاكَ اللهُ طَيِّبَةً

وَجَنّةَ الْخُلْدِ عِنْدَ الْحُوْرِ في الرُّفَقِ

(المصدر السابق، ٣٤٣)

فقد أخذ معنى قوله من الآية المباركة: «وَحُورٌ عِينٌ كَأَمْثَالِ اللُّؤْلُؤِالمَكْنُونِ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُوْنَ».

(الواقعه « ٥٦ » ٢٢/ ٢٤) .

و فـــي قوله:

مُصَدِّقاً لِلْنّبَيينَ الأُلي سَلَفُوا

وَ أَبْذَلَ النَّاسِ لِلْمَعْروفِ لِلْجَادى

(المصدر السابق، ١٥٣)

فقد أخذ معناه من الآية المباركة التّاليّة:

« مُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدَىً وَ بُشْرىً لِلْمؤمنينَ »

(البقرة «٢» / ٩٧)

المدائحُ النّبويّة مبثوثة فـــي جميع قصائده الإسلامية، و إن استقلّت فـــي بعض الأحيان، إلا أنها جاءت منتشرة فـــي الهجاء والرّثاء. علي سبيل المثال عندما يرثـــى النّـــبـــي(ص) فـــي القصيدة الّتي مطلعها:

مَا بَالُ عَيْنِكَ لاَ تَنَامُ كَأَنَّما

كُحِلَتْ مَآقيها بِكُحْلِ الأَرْمَدِ

(المصدر السابق، ١٥٠)

Downloaded from aijh.modares.ac.ir at 10:37 IRDT on Monday August 31st 2020

يمدحه بقوله:

نُوراً أضاءَ على البَرِيَّةِ كُلِّهَا

مَنْ يُهْدِ لِلنُّورِ المبارَكِ يَهْتدِى

(المصدر السابق، ١٥١)

من جانب آخر، كثيراً ما يفتخر بنفسه و بقومه إذ كان شاعر الرّسول و لسان دعوته كما كان قومه يدافعون عن الدّين الجديد و الرّسول الأكرم؛

لِسَانِـــى صَارِمٌ لا عَيْبَ فـــيهِ

وَ بَحرِي لا تُكَدِّرهُ الدِّلاءُ

(المصدر السابق، ٦٣)

***

فَقُمْنَا بِأَسْيَافِنَا دونَه

نُجَالِدُ عَنْهُ بُغَاةَ الأُمَمِ

(المصدر السابق ،٤٢٨)

و هذا هو حسّان و أسلوبه الّذى سيطرعليه الإرتجال، الأسلوب الذي لا يخلومن القوّة و الاندفاع العاطفـــى العنيف الصّادق، و لايخرج عن آثار الدّين الجديد و القرآن الكريم، كما كان شعره مصدراً من مصادر تاريخ تلك الأيام و فاتحة للشعر السياســـي الذى ازدهر فـــي عهد بنـــي أُمية.

أمّا الخاقانـــي فيستهلّ قصائده بالتّحدّث عن التّوحيد أو الموعظة أو وصف الكعبة العلياء أو التّحذير من هوى النفّس و أحياناً بوصف الصّبح الملمّع أو ومضات من النّزعة الصوفـــية، دون أن يصل فـــيها إلى ذروة الحكيم، السنايـــي الغزنوي أو ناصرخسرو (٣٩٤-٤٨١ ه.ق) (خاقاني شرواني، ١٣٥٧هـ.ش، ص الثلاثون)، لكنّه يطلعنا فيها على نزعته الصوفـــية و قدرته على خلق أجواء خاصّة، تتّسم بألوان التّصوّف و الزهد. منها هذا البيت فـــي مطلع قصيدة مدح فـــيها نبيّنا الكريم؛

طفلي هنوز بسته گهواره فنا

مرد، آن زمان شوي كه شوي از همه جدا

(خاقاني شرواني، ١٣٧٥هـ .ش، ١ :٢٨)

و إذا كان ابن الرّومـــىّ ضنيناً بالمعاني، حريصاً عليها،يأخذ بالمعنى الواحد و يولده، فلايزال يقلّبه ظهراً لبطن ،و يصرّفه فـــي كلّ وجه و إلى كل ناحيّة حتّي يميته و تعلم أنّه لا مطمع فـــيه لأحد، (ابن رشيق القيروانـــى، ١٩٩٨م، ٢ :٢٣٨) فكذلك شأن الخاقانيّ في المدائح النّبويّة. ألست ترى كيف يصوّر خضة من التراب الّذي أتى به من تربة الرسول (ص) فـــي قصيدة يصل عدد أبياتها إلى ثمانية و ثمانين بيتاً (أنظر: زيني وند، ١٣٨٣: ١٤٤).

مطلعها هي:

صُبح وارم؛ كآفتابى در نهان آورده‌ام

آفتابم؛ كز دَمِ عيسي، نشان آورده‌ام

(خاقاني شرواني، ١٣٧٥هـ .ش، ٢ :٢٣٨)

و هذا ما جعل أسلوبه قريباً إلى النّثر بسبب طول القصائد الّتي قد تصل أحياناً إلى مائة بيت. و بعبارة أخرى كثرة احتفال الشاعر بالتّحليل و التّفسير؛ دليل على افتقاد شعره الشيء الكثير من الخيال الشّعرى و بلاغة المعنى الموجز و رونقه.

و قد تأتي أحياناً فـــي مدائحه النّبويّة، ألفاظ فـــي غاية الغرابة و التّكلّف إلاّ أنّه يستخدم اللّغة استخدام المعمار موادّه الإنشائيّة في بناية، و يتأنّق في صوغ الألفاظ تأنّق الرّسام فـــي الأشكال و الألوان. ألفاظه معبّرة عن المعنى تمام التّعبير، كما تتّسم تراكيبه بمتانة التّركيب و بلاغة الأداء، لكنّها لا تخلو من بعض الغموض والتكلّف. منها هذا البيت الّذي تطرّق فـــيه الى معراج النّبي(ص) و دنوّه من الخالق فكان قاب قوسين أوأدنى:

اي پنج نوبه كوفته‌دردارِ مُلك لا

لا در چهاربالش‌وحدت كشد تو را

(المصدر السابق، ١: ١١)

Downloaded from aijh.modares.ac.ir at 10:37 IRDT on Monday August 31st 2020

پنج نوبه كوفتن: كنايه عن إعلان الحكومة و هذا صار معهوداً من زمن السّلاجقه حيث كانوا ينقرون الأبواق في خمس مرّات و اقتبسها الشاعر لمفهوم إقامة الصلاة. دار ملك لا: دار حكومة لااله الاالله. چهار بالش وحدت؛ المسند و المعول لوحدانية الله تعالى. و في كلّ هذه المنعطفات يريد أن يمدح النّبيّ بقربه إلى الله و إعلانه النّبوّة و إقامة الصلاة لكنّه سلك مسلك الغموض. و ربّ معنىً جميل أفسده لفظ غريب.

أمّا الإقتباس من القرآن الكريم فهـــي ظاهرة فنّيّة كثر استعمالها في شعر الخاقانـــي ولا نجد قصيدة من قصائده النّبويّة إلاّ و وسّمها بآيات من القرآن الكريم أو الأحاديث النّبويّة. على سبيل المثال قد اقتبس فـــي إحدى قصائده سبعاً و عشرين آية من آيات القرآن المجيد، منها هذا البيت؛

با « نَفْسِ مطمئنه» قرينش كن آنچنان

كآواز «إرجعي» دهدش هاتف رضا

(المصدر السابق، ١: ١٦)

الذي يشيرفيه إلى هاتين الآيتين من سورة «الفجر»؛ «يَا أَيَّتُها النَّفْسُ المُطْمَئِنَّةُ إرجعِـــى إلى رَبِّكِ راضِيَّةً مَرْضِيَّةً» (الفجر «٨٩» /٢٧ -٢٨) .

فضلاً عن هذا، إنّ الملاحظ فـــي بعض مدائحه مثل قصيدة «منطق الطّير»، يجد فيها نوعاً من الأسلوب القصصي الّذي لم يسبق له فـــي المدائح النّبويّة عند الشّعراء الآخرين، حيث يحكي عن سرب من الطّيور الّتى تريد أن تختار وردة جميلة فـــي الطّبيعة، فلأجل هذا تنتشر فـــي أرجاء الأرض و تشمّ كلّ الورود، و لكنّها لا تتفق في آرائها على واحدة، فترجع الحكم إلى «العنقاء» الّتى تختار الوردة المحمديَّة، و منها هذا البيت على لسان«العنقاء»؛

گرچه همه دلكشند، از همه گلْ نغزتر

كو عرق مصطفاست؛ وين دگران خاك و آب

(المصدر السابق، ١: ٦٦)

الظاهرة الأخرى الّتي تشاهد فـــي مدائحه الّنبويّة هـــى الاستفادة من الثّقافة المسيحّية، لأنّ أمّه كانت مسيحيّة قبل إيمانها بالإسلام، منها هذا البيت؛

مريم گشاده روزه و عيســـى ببسته نطق

كاو در سخن گشاده و سر سفره سخا

(المصدر السابق ١: ١٤)

و من يطالع الشّعرالكلاسيكى عند العرب و الفرس يدرك أن البحور المستعملة بكثرة هي: الطويل، والكامل، والوافر، والبسيط، و قد استفاد كلا الشاعرين من هذه البحور في أشعارهما، و القارىء لقصائدهمايدرك أنّهما قد لائما بين موضوعات الشعر وأوزان البحور. على سبيل المثال إنّهما يستعملان الطويل و البسيط فـــي المناسبات التـــى تتطّلب قوّة أو وصفاً فـــي مدح النّبى (ص). وقد تأتـــي أحياناً في المدائح النّبوية للخاقاني – القوافى العصيّة و الأردفة الصعبة، خلافاً لما نجده عند حسّان – فمثلاً يستعمل شاعرنا كلمة «آمده» في ثلاثمائة مرّة كالرديف في قصيدة «تحفة الحرمين».

و الخلاصة هـــي أنّ اسلوب الخاقانـــي فـــي المدائح النّبويّة يعدّ أسلوباً سهلاً و ممتنعاً؛ ليأتـــى بألفاظه بين الوضوح و الغموض، فلها جرس موسيقي منقطع النّظير، كما يستفـــيد من الصّور و الأخيلة الّتـــي تكون أحسن و أروع من تلك التّصاوير الّتـــــي إستعملها حسّان بسبب العناصر التـــي اقتضتها تغييرات الزمان و المكان.

٥–النتائج

٥–١) السمات المشتركة:

٥–١–١) لا تخلو مدائحهما من وحدة الموضوع كعنصرأساســـي فـــي تكوين أجزاء القصيدة.

Downloaded from aijh.modares.ac.ir at 10:37 IRDT on Monday August 31st 2020

٥-١-٢) كلاهما حريص على الإقتباس من القرآن الكريم و الأحاديث النّبويّة.

٥-١-٣) إنّهما يمدحان النّبـــيّ(ص) مدحاً صادقاً و بما هوأهله، دون أي تكسّب أو استجداء.

٥-١-٤) لا تخلو مدائحهما من بعض المضامين والأساليب المشتركة وأحياناً المتباينة .

٥-١-٥) كلاهما يتّبعان أسلوب الشعراء السالفـــين، لكنّهما يعدّان منالشّعراء المجدّدين فـــي هذا الفنّ، كما أنّهما يعّدان من الشّعراء المؤثّرين فـــي غيرهما. على سبيل التّذكير، قد تاثّر بأشعار حسّان أمثال«الكميت بن زيد الاسدي» و«الفرزدق» و«البوصيرى» و«أحمد شوقـــى» والآخرون. كما أنّ «جمال الدين عبدالرزاق الاصفهانى» (؟-٥٨٨ ه.ق) و«سعدي الشيرازى» (٦٠٦-٦٩٠هـــ.ق)قد تأثّرا بأسلوب الخاقانـــي.

٥-١-٦) كثيراًما يستعملان فـــي مدائحهما عنصر«المفاخرة» بأشكالها المختلفة؛ الفردية، أوالقومية أوالدّينية.

٥-١-٧)إنّ المدائح النّبويّة عند حسّان و الخاقانـــــى تعدّ مصدراً من مصادر تاريخ تلك الأيام ،كما أنها تكشف عن جماليات هذا الفنّ و عن عواطفهما الصّادقة العميقة .

٥-٢)السّمات المتباينة:

٥-٢-١)إنّ المدائح النّبويّة للخاقانـــــي أكثر طولاً و استقلالاً من شعر حسّان كما أنّها أكثر اختراعاً و تفسيراً للمعاني و أبعد نظراً و دقةً فـــي وصف دقائق الأشياء.

٥-٢-٢) إنّ حسّان أكثر استعمالاً عناصر التّهديد و الوعيد و الحماسة بالنسبة إلى الخاقاني، بسبب اختلاف البيئة.

٥-٢-٣) إنّ الخاقاني يصب جلّ اهتمامه على ألالفاظ و المعاني أكثر من حسّان.

٥-٢-٤) إنّ الخاقانـــــى يعنى عناية فائقة بعنصرالموسيقى الشعرية بما يستعمله من الألفاظ و التّراكيب و الأوزان و القوافـــي المناسبة.

٥-٢-٥) إنّ الخاقاني يستعمل الأسلوب القصصى في بعض مدائحه مع أنّ هذه الظاهرة لا توجد في شعر حسّان الّا في قصيدة واحدة و هو يسرد فيها قضية «غدير خم ».

٥-٢-٦) المدائح النّبويّة تعكس لدى حسّان مقدرته على الإرتجال، أما عند الخاقاني فهي تشهد على طول باع الشّاعر و قدرته على قرض الشّعر بحيث يتبادر إلى الأذهان أنّه شاعر من شعراء الحوليّات.

٥-٢-٧) إنّ حسّان خالف أحياناً عمود الشّعر أو نهج القصيدة فهو مثلاً لايبدأ قصائده بالوقوف على الأطلال و الدّمن، بل يستهلّها بتعريف الدّين الجديد و رسوله، أمّا الخاقاني فلم يخالف في كثيرمن الأحيان عمود الشّعر، حيث يستهلّ قصائده بالتّوحيد و الحكمة أوالوصف كما كان مشهوراً عند بقيّة الشّعراء الملتزمين .

٥-٢-٨) إنّ معاني المدح عند حسّان جاهليّة و اسلاميّة، أما مجمل معاني المدح عند الخاقاني فهي إسلاميّة بسبب اختلاف البيئة و الثقافة.

٥-٢-٩) إنّ الخاقانـــى أكثر استعمالاً للألفاظ الغريبة و التّراكيب الغامضة بالنسبة إلى حسّان.

المراجع

المراجع العربية:

[١] ابن رشيق القيروانـــى، أبوعلـــى الحسن(١٩٩٨م)؛ العمدة فـــي محاسن الشّعر و آدابه و نقده، تحقيق؛ محمد قرقزان، الطبعة الأولى، بيروت، دارالمعرفة .

Downloaded from aijh.modares.ac.ir at 10:37 IRDT on Monday August 31st 2020

[٢] ابن منظور، محمدبن مكرّم (١٩٩٨م)؛ لسان العرب، تحقيق؛ على سيرى. الطبعة الأولى،بيروت، داراحياء التراث الإسلامي.

[٣] ابو حاقة، أحمد (١٩٧٩ م)؛ الإلتزام فـــي الشعر العربي، الطبعة الاولي، بيروت، دارالعلم .

[٤] الأصفهانـــى، أبوالفرج (١٩٨٣ م)؛ الأغانـــى، بيروت، داراحياء التراث العربـــى .

[٥] حسّان بن ثابت الأنصاري(١٩٩٠م)؛ شرح؛ عبدالرحمن البرقوقي، دارالكتاب اللبنانـــى .

[٦] البستانـــى، بطرس (١٩٨٩م) ؛ أدباء العرب فـــي الجاهلية و صدر الاسلام، بيروت، دارنظير عبود.

[٧] التبريزى، الخطيب(١٩٧١م)؛ شرح قصيدة كعب بن زهير في النّبيّ (ص)، تحقيق؛ ف، كرنكو. بيروت، دارالكتب الجديدة.

[٨] پاشا، عمر موسى (١٩٩٩م) تاريخ الأدب العربـــى فـــي العصرالمملوكـــى، الطبعة الأولى، دمشق، دارالفكر.

[٩] الجمحـــي، محمدبن سلّام (بدون تاريخ)؛ طبقات فحول الشعراء، تحقيق: محمود محمدشاكر.دارالمدنـــى بجدة.

[١٠] الحسينـــى، سيد جعفر (١٤١٦ هـ .ق)؛ تاريخ الأدب العربـــى (أدب صدر الإسلام)، الطبعة الأولى، قم، دارالإعتصام .

[١١] ربداوي، محمود (١٤٠٢ هـ- ١٩٨٢ م)؛ ابن حجة الحموى؛ شاعراً وناقداً، دارقتيبة .

[١٢] زيني وند، تورج (١٣٨٣ هـ .ش)؛ مقارنة بين ابن الرّومـــى والخاقانـــى الشّروانـــى فـــي تفسير المعاني و استقصائها، خلاصه مقالات اولين همايش بين المللي نقش زبان در گفت وگوي تمدنها، دانشگاه اصفهان .

[١٣] الشايب، أحمد (١٩٧٦ م)؛ تاريخ الشعر السياســـي، بيروت، دارالقلم .

[١٤] شرف الدين، خليل(١٩٩٧م) الموسوعة الأدبية الميسرة،الطبعة الأولى ،بيروت،داروكتبة الهلال،

[١٥] ضيف، شوقـــي، (بدون تاريخ)؛ الفن ومذاهبه في الشعر العربـــــى، الطبعة الثامنة، مصر،دارالمعارف.

[١٦] ـــــــــــ، (١٩٦٣م) ؛تاريخ الأدب العربـــى (العصر الإسلامى)، الطبعة السابعة، القاهرة،دارالمعارف،

[١٧] ـــــــــــ، (١٩٧١ م)؛ فصول فـــي الشّعر و نقده، الطبعة الأولى، القاهرة، دارالمعارف .

[١٨] عبدالنّور، جبور (١٩٧٩ م)؛ المعجم الأدبي، الطبعة الأولى، بيروت، دارالعلم للملايين .

[١٩] عيسي، يوسف(١٩٩٠م)؛ حسّان بن ثابت الأنصارى، حياته و شعره، الطبعة الأولى،بيروت، دارالكتب العلمية .

[٢٠] الفاخوري. حنّا (١٣٨١ هـ .ش)؛ تاريخ الأدب العربـــي، الطبعة الثانية، طهران، طوس .

[٢١] مبارك، زكي (١٩٧٦ م)؛ المدائح النّبويّة، الطبعة الثانية، بيروت، دارالعلم للملايين .

[٢٢] مفـــيد، محمد بن محمد (بدون تاريخ)؛ الإرشاد في معرفة حجج الله علي العباد، طهران، دارالكتب الإسلامية.

[٢٣] نورالدين، حسن (٢٠٠٠م)، موسوعة أمراء الشعر العربي من العصر الجاهلي إلى العصر العباسي، الطبعة الأولى، بيروت، شركة رشاد برس .

Downloaded from aijh.modares.ac.ir at 10:37 IRDT on Monday August 31st 2020

المراجع الفارسيّة:

[٢٤] خاقاني شرواني (١٣٧٥ هـ .ش)؛ ديوان خاقاني، تصحيح؛ ميرجلال الدين كزازي، چاپ اول، تهران، ماد.

[٢٥] ـــــــــــ، (١٣٣٣ هـ .ش)؛ مثنوي تحفة العراقين، تصحيح؛ يحيي قريب، چاپ اول، تهران، شركت سهامي كتابهاي جيبي .

[٢٦] دشتـــــی، علـــــی (١٣٦٤ هـ .ش)؛ خاقانـــــی شاعر دير آشنا، چاپ چهارم ، تهران ،اساطير .

[٢٧] رزمجو، حسين (١٣٦٩ هـ .ش)؛ شعر كهن فارســـــی در ترازوي نقد اخلاق اسلامـــــی،چاپ سوم، مشهد، آستان قدس رضوی .

[٢٨] زرين كوب، عبدالحسين(١٣٧٨ هـ .ش)؛ ديدار با كعبه جان ،چاپ اول، تهران ،سخن .

[٢٩] زيني وند، تورج (١٣٨١ هـ.ش)؛ مقايسه ي بين أبـــی الطّيب المتنبـّـی و خاقاني شرواني در شعر فخر، رساله كارشناسي ارشد، تهران، دانشگاه تربيت مدرس .

[٣٠] صفا ،ذبيح الله(١٣٧٣هـ .ش) ،تاريخ ادبيات در ايران، چاپ سيزدهم، تهران، فردوس.

[٣١] فروزانفر، بديع الزمان (١٣٦٩ هـ.ش)؛ سخن و سخنوران. چاپ چهارم، تهران. خوارزمي .

[٣٢] كزازی، مير جلال الدين(١٣٧٢هـ .ش) رخسار صبح، چاپ دوم ،تهران، ماد .

[٣٣] كندلـــی هريسچـــی، غفار (١٣٧٤هـ.ش)؛ خاقانـــــی شروانـــــی، حيات، زمان و محيط او، ترجمه؛مير هدايت حصاری، چاپ اول، تهران، مركز نشر دانشگاهي .

[٣٤] ماهيار، عباس(١٣٧٣هـ .ش)؛ گزيده اشعارخاقانـــــی، چاپ دوم ؛تهران، قطره، ١٣٧٣ هـــ.ش.

[٣٥] معدن كن،. معصومه. نگاهي به دنياي خاقاني، چاپ دوم ؛تهران، مركز نشر دانشگاهي .

[٣٦] وزين پور، نادر (١٣٧٤هـ.ش)؛ مدح ،داغ ننگ بر سيماي ادب فارسي، چاپ اول، تهران ،معين .

المواقع الإنترنتية

[٣٧] أبوالخير، محمود عبدالله. مقدمة القصيدة الجاهليّة عند حسّان بن ثابت الأنصاري.

[38] www.upu.edu.sa/majalt/shariramag/magzi/mG-016.hotm. 2002/10/13

[٣٩] شمســـی باشا، محمّد عبدالرحمن. حسّان بن ثابت شاعر الرسول.

[40] www.Khayma.com/mchamsipasha/Hassan.htm.2002/10/13

Downloaded from aijh.modares.ac.ir at 10:37 IRDT on Monday August 31st 2020

مقایسه بین حسّان بن ثابت الانصاری و خاقانی شروانی در مدایح نبوی

تورج زینی‌وند[1]

تاریخ دریافت: ۱۳۸٦/٦/۳ تاریخ پذیرش: ۱۳۸٦/۹/۲٤

با دمیدن خورشید اسلام و آغاز ایمان توده های مردم به این دین، و نیز بدلیل گرایش مردم به آموزه های قرآنی، شعر عربی به تدریج به سستی گرایید. سپس، رخدادهایی در آن زمان به وجود آمد که برخی از شاعران گمراه، تیرهای سخن خویش را روانه پیامبر (ص) و اصحابش نمودند و دیری نپایید که شاعران مسلمان نیز در برابر آن گمراهان، ایستادگی نموده و شعرهای فراوانی را در هجو آنان و در دفاع از پیامبر (ص) و اسلام، سرودند .

و چون پیامبر رحلت نمود و به ملکوت اعلی پیوست، پرتوهای این شعر خاموش نشد بلکه هماره بر زبان شاعران متعهد، جاری بوده تا اینکه با گذر زمان، رشد کرده و با عنوان «مدایح نبوی» شناخته شد.

این پژوهش، به بررسی مضمون و ساختار مدایح نبوی در شعر حسّان بن ثابت (شاعر پیامبر (ص)) و خاقانی شروانی (حسّام العجم) از شاعران بزرگ ادب تازی و پارسی، می‌پردازد.

واژگان کلیدی: مدایح نبوی، حسّان بن ثابت الأنصاری، خاقانی شروانـی

۱. استادیار گروه زبان و ادبیات عربی دانشگاه رازی کرمانشاه